رواية البكاء على صدر الحبيب مغامرة كبيرة لرشاد أبو شاور "

صـالح خليـل أبو أصـبع

حالما تنتهي من قراءة هذه الرواية القصـيرة لرشـاد أبو شـاور التي لا تتجاوز 94 صـفحة من القطع المتوسط، تشعر في أعماقك بحنق تجهل سببه. هل ذلك لأنك عشت مع (زياد) لحظات غضبه وثورته وألمه؟ أم لأنك تجولت مع (غالي) وركبت البحر معه ثم (عدت من البحر إلى البلاد، البلاد التي لا تخضـع للفهم، البلاد العجيبة المليئة بالشرـطة والعسـاسـين والعاهرات)؟ أم لأنك حزنت لانتحار أبي خليل أم لاستشهاد هناء وغالي؟

ها أنت ترى الأسى يحاصرك من كل جانب، وها أنت ترى أن البكاء على صـدر الحبيب أمر لا بد منه، إذن فكيف الخروج من أزمة الحنق والحزن والثورة؟. هذه الرواية القصيرة تحاول أن تلخص أزمة المقاومة الفلسـطينية منذ خروجها من عمّان، فشـخصـياتها عاصرت أحداث أيلول، في عمان، وهي شـخصـيات مناضـلة بدءاً من المخرج والممثل وانتهاء بالشـهداء أمثال غالي وهناء وأبو خليل. وهم يرفضـون واقعهم ويثورون على القيادات التي عناها غالي بخطابه "أنتم الذين تجلسـون فوق، أنتم الذين تعيشـون حياة لا يحياها وزراء... أنتم الأمراء الجدد... كنتم تصـدرون الأوامر من دمشـق ودرعا وبيروت، كانت أجهزة اللاسلكي هي وسيلتكم النضالية... اللعنة على الكذابين". تدور أحداث القصة في حقبة زمنية قصـيرة، وهي إذ تعتمد أسـلوب تيار الوعي تجعلنا ننتقل مع أبطال الرواية من خلال منولوجات تلقي على الأحداث خلفيات تضيء صورة الشخصيات وتبلور الأحداث. لقد كان زياد أحد المسـؤولين في أحد تنظيمات المقاومة وبعد خروج المقاومة من عمان ذهب إلى دمشـق حيث عاش في مخيم اليرموك، ولكنه وجد نفسه يفعل لا شيء "أكتب أحياناً. أقرأ أحياناً. أنام أحياناً. زعلان با ستمرار، أنتظر نهاية الشهر وآخذ مخصصي، أعيش في غرفة كئيبة في مخيم اليرموك".

هذا هو أحد أبطال الرواية، التي لا تقدم لنا شـخصـيات مكتملة النمو، بل تقدمها وهي تعيش أحداثاً تسـهم في اكتمال بناء الصرـاع الدرامي للقصـة والذي مردّه إلى الجو العام الذي تسـبح فيه الأحداث والشخصيات، إن القصة باختصار تحاول أن تصور تجربة مبسترة لشباب عاشوا مع منظمات المقاومة، ولكنهم بعد خروج المقاومة من الأردن اكتشـفوا أي عيشـة تعيشـه بعض القيادات والتي لا تريد إصـلاحات في كياناتها التنظيمية، فيعيش هؤلاء الشـباب التمزق والألم وهم يحاولون الإصـلاح والنضال من أجل الوطن.

* البعض منهم يهرب من هذا العالم الفاســد كما فعل (غالي) الذي "ذهب ليواجه العالم فماذا فعل؟ لا شيئ ولكنه يعود إلى الوطن ثانية".

* أو بانتقاد الأوضاع كما فعل (زياد) الذي كان متهماً بالتحريض.

* أو بالرفض كما فعل المخرج والممثلون الذين مزّقوا المسرـحية الثامنة حيث يعلن المخرج "من البداية قلت لكم إما أن نكون فنانين بجد أو نكذب ونهرج ونغش إنسجاماً مع الواقع".

* أو كمثل "نهاد" الفتاة المناضــلة التي ترفض إكرام القائد المســؤول لمحاولة اســتغلالها إذ تقول له بحدة: "لماذا لا ترســل زوجتك مثلاً في هذا العمل الوطني العظيم... إذا أردتم مقاتلة العدو أو مواجهة الذين ذبحونا في الأحراش فأنا على اســتعداد"، وهكذا تؤكد الرواية بأن البكاء على صــدر الحبيب قدر من لا أرض له ومن فقد حريته، من هنا يمكننا أن نتابع الشــخصــيات المحورية في القصة، ولعلها اثنتان:

- شخصية (زياد) الكاتب المسرحي الذي اكتشف زيف القيادة... لكنه اختار قدره ارتباطاً مصيرياً بالمقاومة "أنا كما كنت لن أخرج، أحب لو أتسـكع في العالم لكنني لا أسـتطيع أنا ملتصـق باختياري". زياد هذا الملتصق باختياره بفدائيي شعبه، لا نشعر بقناعة تامة بشخصيته، عرفنا أنه ثائر على الأوضاع التي يعيشها، وبأنه محرض كما قالت نهاد. وشخص يمتلك هاتين الصفتين له أن يكوّن صورة أخرى غير التي قدمت إلينا فجاءت أقل إقناعاً من شخصية "غالي" التي تكاملت في إطار الحدث بحيث أصبحت جلّ تصرفاته منطقية ومنسجمة معه ومع ما يقوله ويفطن. فنحن نرى أن قصة حب زياد لفجر كانت غير مقنعة، برغم الماضي الذي حدثنا عنه بتقدمه لخطبتها، وكان حديث الطبيب لزياد الذي جاء في مسـتهل الرواية، قد زجّ به خصـيصـاً ممهداً لعلاقة زياد بفجر حينما يقول زياد: "أحتاج زوجة"، ولعل الفصـل الأول بكامله كان يمكن الاسـتغناء عنه دون أن يؤثر ذلك على بناء القصـة الغني ونمو الأحداث فيها.

هذا بالنسبة لزياد، أما شخصية "غالي" فإنها مثيرة حقاً للإنتباه، ولست أدري لماذا تطرّق سريعاً إلى ذهني صورة "وديع عساف" الفلسطيني الذي كان على ظهر (سفينة) جبرا إبراهيم جبرا. هل لأن البطلين فلسطينيان، هربا من قدرهما وفلسطينهما وركبا ظهر السفينة؟ هل لأن السفينة التي ركباها طافت موانئ عديدة؟ أم لأن البطلين أمســكا بالريشــة وعبّرا عن مشــاعرهما من خلال اللون؟ أم لأن كليهما يقرر العودة إلى الوطن؟ إنني لست أدري، وبقوة وجدت نفسي مدفوعاً لأربط فنياً بين (البكاء على صدر الحبيب) وبين رواية (السفينة) لجبرا إبراهيم جبرا، فأجد صوراً من التشابه، مع الفارق بين شخصيات الروايتين:

* "باميلا" اللامبالية في السفينة و "هناء" اللامبالية ايضاً هنا.

* "فجر" الهاربة من نظام الســـلطة الأردنية و "لي" الهاربة من نظام الثأر القبلي ومن ماضـــيها في السفينة، ثم ماذا بعد؟ هناك أيضاً أوجه تشابه من حيث الشكل في إطاره العريض. فالفصول لدى جبرا في سفينته كانت بأ سماء أ شخاص يتحدثون ثم يـسترجعون ذكرياتهم وكذلك كانت في رواية أبي شاور فصول بأسماء الأبطال.ثم يستخدم جبرا المذكرات في السفينة، وهنا تستخدم المذكرات أوجه شبه بعيدة ولكنها لا بد أن تدق الذهن بحدة. والآن ماذا تقدم رواية البكاء على صـــدرالحبيب؟ إن الرواية السياسية عمل صعب، والأدب السياسي بمجمله ذو مهمة شاقة. وحينما يقدم أحد كتابنا الشباب على تجربة روائية ينتقد بها أخطاء المقاومة من خلال التجربة التي عاشها بنفسه، يكون من الأمور الصعبة ألا يقع الإنسان في شرك المباشرة، حينما يدين، وحينما يعالج أحداثاً كبيرة.

ولكن الكاتب هنا حاول الإفلات من هذا الشرـــك عندما جعل إدانات أخطاء القيادات من خلال تيارات وعي تتوارد إلى ذهن الأبطال، وأحياناً أخرى في ثنايا الحوار... إن الرواية تجربة في مجال الأدب الـسياسي والتـسجيلي، وهي تجربة شاقة، وحينما تـصبح القـضايا الـسيا سية مجال الأدب، فإن الكاتب سوف يخوض مغامرة كبيرة، وأي مغامرة، وهكذا فعل رشاد أبو شاور.